ظاهرة القلب اللغوي
أنواعها ومظاهرها في المذهب الكوفي

إعـــــداد

د/ عبد الرؤوف وليد العرفج

أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالأحساء

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص:

يتكون هذا البحث من تمهيد فيه بيان معنى القلب لغة واصطلاحا، ثم دراسة الآيات القرآنية التي جاءت متضمنة لهذه الظاهرة مما تحدث عنه الفراء – مرتبة حسب موقعها في المصحف الشريف – ويذكر الباحث في ذلك رأيه ورأي العلماء –إن احتيج إلى ذلك– ممن سبقه أو جاء بعده، ممن خالفه أو وافقه، ثم في نهاية البحث تأتي الخاتمة ، وفيها يتحدث الباحث عن أبرز معالم المنهج الكوفي في معالجته لهذه الظاهرة. ومن أهم النتائج التي توصل إليها الباحث :

- للقلب عدة معان لغوية، منها ما له علاقة بالمعنى الاصطلاحي ومنها ما ليس كذلك.
- تداول هذا اللفظ – القلب – علماء الفنون في مجالاتهم المعرفية، فحدّه كلٌ بحسب فنه.
- اختلف علماء العربية في تعريفهم لهذا المصطلح، فعلماء الصرف يعرفونه بما يختلف عن تعريف علماء البلاغة.
- تعريف القلب عند علماء اللغة يقرب من تعريفه عند البلاغيين غير أنه عند اللغويين أوسع في الدلالة.
- من مظاهر القلب اللغوي: أن يوصف الشيء بضد صفته، ومنه تقديمُ ما لو أخّر لكان أوضح في المعنى، وتأخير ما لو قدّم لكان أوضح في المعنى، ومنه تقديم المؤخر.
- ظاهرة القلب من الظواهر التي جوز الفراء وقوعها في القرآن الكريم خلافا لغيره من العلماء.
- مذهب الفراء أن هذه الظاهرة من الظواهر الجائزة في سعة الكلام من غير اضطرار–خلافا للمذهب البصري – .
- للقلب عدة مظاهر عالجها الفراء في الآيات القرآنية، فمن ذلك: التقديم والتأخير، وإسناد الفعل لغير من هو له، والقلب بين حرفين من حروف الجر بوضع أحدهما مكان الآخر ونقل الآخر إلى موضع الأول.
- ضابط هذه الظاهرة لدى الفراء: أن المعنى إذا اتضح لذى المخاطب جاز للمتكلم القلب لأمن اللبس حينئذ.
- ذكر الفراء مدى انتشار هذه الظاهرة، فبين أن ذلك ظاهر وكثير من كلام العرب.
- نصوص الفراء في هذه الظاهرة مختلفة لا بد من ربط بعضها ببعض لكيلا يقع التناقض بينها.
- جعل اللفظ على ظاهره والذهاب إلى وجود القلب في الأسلوب أولى– عند الفراء–من تأويل الألفاظ وإخراجها عن ظاهرها.

Abstract:

Research title: The phenomenon of the linguistic heart, its types, and manifestations in the Kufic doctrine

This research consists of a preface in which the meaning of the heart is explained linguistically and idiomatically, then a study of the Qur'anic verses that came to include this phenomenon from what Al-Farra spoke about - arranged according to its position in the Noble Qur'an - and the researcher mentions his opinion in that and the opinion of scholars - if needed - from those who preceded him or came After it, those who disagree with it or agree with it, then at the end of the research comes the conclusion, in which the researcher talks about the most prominent features of the Kufic method in its treatment of this phenomenon. Among the most important findings of the researcher:

- The heart has several linguistic meanings, some of which have to do with the idiomatic sense and some of which are not.
- The circulation of this word - the heart - art scholars in their fields of knowledge, each one according to his art.
- Arab scholars differed in their definition of this term, scholars of morphology know it in a manner that differs from the definition of rhetoric scholars.
- The definition of the heart according to linguists is close to its definition among rhetoricians, but with linguists it is broader in meaning.
- From the manifestations of the linguistic heart: to describe a thing with the opposite of its description, and from it is the introduction of what if it was delayed would have been clearer in the meaning, and the delay of what if it had been presented would have been clearer in the meaning, and from it is the introduction of the backside.
- The phenomenon of the heart is one of the phenomena that the fur is permissible to occur in the Holy Qur'an, unlike other scholars.
- The Fur' doctrine that this phenomenon is one of the permissible phenomena in the wideness of speech without necessity - in contrast to the visual doctrine.-
- The heart has several aspects that the fur has dealt with in the Qur'anic verses, including: the introduction and the delay, the attribution of the verb to someone other than its own, and the heart between two prepositions by placing one in the place of the other and moving the other to the position of the first.
- The controller for this phenomenon according to Al-Far': that if the meaning becomes clear to the addressee, it is permissible for the one who speaks with the heart to avoid confusion at that time.
- Al-Far mentioned the extent of the spread of this phenomenon, so he indicated that this is apparent and many of the words of the Arabs.The texts of Al-Farra regarding this phenomenon are different and they must be linked to each other so that there is no contradiction between them.
- Making the pronunciation on its face and going to the presence of the heart in the style is more important - in the case of the fur - than interpreting the words and taking them out of their appearance.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن الله ميز هذه اللغة بجعلها حاملة لكلامه الكريم القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومنحها شرف إبانته، فالسنة النبوية التي هي تبيان وتفسير للقرآن عربية محضة لا تشوبها لكنة، وما كان هذا الاختيار والاصطفاء من الله لهذه اللغة عبثا - فحاشاه سبحانه من ذلك - بل كان لما تميزت به، وإن مما تتميز به هذه اللغة الشريفة سعة مفرداتها، ومرونة أساليبها، وكثرة ظواهرها اللغوية، مما حدا بالعلماء قديما وحديثا إلى دراسة هذه الظواهر، وبيانها وإبداء رأيهم فيها، وقد كان لظاهرة القلب من ذلك نصيب، غير أن العلماء - رحمهم الله - أكثر ما درسوها في علمي المعاني والبديع من علوم البلاغة، وقد عنوا - أشد ما عنوا - بتعريفها والتمثيل عليها فقط، فلذلك جاءت هذه الدراسة التي نحاول فيها بيان آراء اللغويين في هذه الظاهرة - وأخص منهم الفراء - من خلال حديثه عنها في كتابه معاني القرآن، وبذلك يبين لنا وجه آخر لهذه الظاهرة وهو رأي المذهب الكوفي فيها مما لا أحسب أن أحدا قام بدراسته، وينجلي لنا بذلك جانب من جوانب تحليل اللغة عند الكوفيين الذي قلما درس.

من أجل هذا كانت هذه الدراسة مختلفة عن غيرها من الدراسات بأمور:

١- أنها تعالج ظاهرة القلب بمفهومها اللغوي العام، لا بما اقتصر عليه علماء البلاغة.

٢- أنها معنية ببيان هذه الظاهرة لدى أبي زكريا يحيى الفراء حامل لواء المذهب الكوفي، وهي بذلك مبينة لرأي المذهب الكوفي في هذه الظاهرة.

٣- أنها تعنى ببيان هذه الأمثلة من الذكر الحكيم، الذي هو أفصح الكتب وأصحها.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن أمهد له ببيان معنى القلب لغة واصطلاحا، ثم أثني بدراسة الآيات القرآنية التي جاءت متضمنة لهذه الظاهرة مما تحدث عنه الفراء، - مرتبة حسب موقعها في المصحف الشريف - ، مبينا في ذلك رأيه ورأي العلماء - إن احتيج إلى ذلك - ممن سبقه أو جاء بعده، ممن خالفه أو وافقه، ثم أنهي البحث بخاتمة أتحدث فيها عن أبرز معالم المنهج الكوفي في معالجته لهذه الظاهرة.

وأرجو بذلك أن أكون ممن شارك في خدمة هذه اللغة العربية ودارسيها، وبيان مزاياها ورد التهم عنها، وكل ما كان كذلك فهو خدمة لكلام ربنا عز وجل، وبيان لمزاياه ورد للطاعنين فيه؛ إذ هو بها، والله سبحانه الموفق والمعين، وهو المسؤول أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

التمهيد

القَلْب في اللغة:

للقلب في لغة العرب معان كثيرة، قال الخليل – أجزل الله عطاءه – : القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط...، وجئتك بهذا الأمر قلبا أي محضا لا يشوبه شيء، وقلوب الشجر: ما رخص فكان رخصا من عروقه التي تقوده، ومن أجوافه، الواحد قلب، وقلب النخلة: شحمتها[١] .... سمي قلبا لبياضه، ....، ولكل شيء قلب، .... والقلب: تحويلك الشيء عن وجهه، وكلام مقلوب ...[٢].

يجتمع لدينا في هذا النص عدة معان للقلب ١ – القلب المادي الصنوبري الشكل، ٢ – القلب بمعنى الشيء الخالص الذي لا يشوبه شيء آخر سواه ٣ – ما لان من عروق الشجرة، أقول ولعله مأخوذ من معنى القلب الصنوبري ؛ لأنه لين بالنسبة لبقية أجزاء البدن كالعظام، أو لأنها لا تعيش من غير عروقها كقلب الإنسان لا يعيش بدونه ٤ – جمار النخلة، وهي القطعة البيضاء التي يستخرجها الفلاح من وسط أعلى النخلة حيث مجتمع أغصانها، أقول وهذه أيضا ربما أخذت من دلالة القلب الذي في الإنسان؛ فهو – أي القلب – في وسط بدن الإنسان من الأعلى، غير أن الخليل – رحمه الله – يرى أن ذلك لما في قلب النخلة من البياض، فكأن البياض عنده مسوغ لإطلاق هذا اللفظ، ثم وسع دلالة هذه اللفظة كثيرا حيث قال: ولكل شيء قلب، فهو يذكر أن هذا اللفظ قد يطلق على عدة مدلولات، ولكن لم يبين شروط إطلاق هذه اللفظة، ولا يصح جعل هذه اللفظة مطلقة هكذا؛ ولذلك يبدو لي تقيده بكل شيء له عدة أجزاء فيطلق القلب على أهم أجزاءه أو ما لا بدّ منه أو ما كان في وسطه، وهكذا تضيق دائرة هذه اللفظة ليستقيم بذلك المعنى ٦ – وبعد ذلك ذكر – رحمه الله – ما نحن بصدده فقال: والقلب: تحويلك الشيء عن وجهه، فكلّ ما كان تحويلا لشيء ما عن جهته التي هو عليها فهو قلب، سواء كان التحويل للحسيات أو المعنويات، وسواء كان في الألفاظ أو المعاني، وبذلك يتضح لنا تدريجيا كيف وصلت الكلمة إلى مدلولها الاصطلاحي.

وبالعودة إلى المعجميين نجد ابن دريد في الجمهرة قد ذكر هذه المعاني للقلب، وزاد عليها أنه يطلق على منزل من منازل القمر[٣]. وهو مما يدخل فيما قاله الخليل من أن لكل شيء قلبا، وهذا القلب هو قلب العقرب كما يسمّى[٤]، فالمراد به وسطه.

وجاء بعده الأزهري في تهذيب اللغة فنقل معنى آخر للقلب، قال نقلا عن الفراء[٥] أن القلب يطلق على العقل[٦].

بذكر المعاني السابقة المذكورة عند متقدمي المعجميين يمكن أن ندرك قصور ما ذهب إليه ابن فارس في المقاييس حيث ذكر أنّ القاف واللام والباء أصلانِ صحيحانِ: أحدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى خَالِصِ شَيْءٍ وَشَرِيفِهِ، وَالْآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ[٧]، فهو وإن حوى أغلب المعاني غير أنه لم يذكر أنه يدل على ما لان من الشجر والبقول، ولم يذكر أنه يدلّ على البياض كما ذهب إليه الخليل، ولعله لا يوافقه في ذلك.

القلب في الاصطلاح:

استعمل أهل العلوم هذا المصطلح كلٌّ في فنه حسب ما رآه مناسبا له ومتعلقا به من الناحية اللغوية، فالأصوليون يعرفون القلب بأنه: استعمال العلة التي بنى عليها الخصم حجته فِي نقض مَا أَرَادَه[٨].

والمحدثون يرون أنه: هو الحديث الذي انقلب فيه على أحد الرواة لفظ في المتن، أو اسم رجل أو نسبه في الإسناد، فقدم ما حقه التأخير، أو أخر ما حقه التقديم، أو وَضعَ شيء مكان شيء، فالقلب يكون في المتن ويكون في الإسناد[٩].

والصرفيون يرون أنه: إبدال حروف العلة والهمزة بعضها مع بعض فهو أخصّ من الإبدال. ويطلق أيضا عندهم على تقديم بعض حروف الكلمة على بعض ويسمّى قلبا مكانيا[١٠].

وعرفه أهل البديع بأنه: كون الكلام بحيث إذا قلبته وابتدأت من حرفه الأخير إلى الحرف الأول كان الحاصل بعينه هو هذا الكلام ويسمّى أيضا بالعكس والمقلوب المستوي[١١].

وغير ذلك من اصطلاحات أهل العلوم، والذي يعنينا من هذه التعريفات ما عرفه به أهل المعاني، وقد اختلفوا في تعريفه، فحدّه ابن المنقذ بأنه أن يقصد المتكلم شيئا ويكون المقتضي بضدّ ذلك الشيء[١٢]، أما المتأخرون فقد عرفوه بأنه: جعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه على وجه يثبت حكم كل منهما للآخر[١٣]، فهو جريُ حكم أحد جزأي الكَلَام على الآخر[١٤].

وهذا التعريف الذي ارتضاه أهل المعاني قريب من التعريف الذي نحن بصدده ولكنهم - وأخص متأخريهم - قصروا القلب على جعل أحد الجزئين مكان الآخر ولم يوسعوا دلالته ليشمل ما يراه اللغويون، على أن ابن منقذ كان أوسع في دلالته قليلا من المتأخرين.

القلب عند اللغويين:

توسع اللغويون في دلالة القلب، فمن القلب عندهم أن يوصف الشيء بضد صفته - وهذا موافق لما حده به ابن منقذ، ومنه تقديمٌ ما لو أخّر لكان أوضح في المعنى، وعكسه أي: تأخير ما لو قدم لكان أوضح في المعنى(١٥)، ومنه تقديم المؤخر ثم المجيء بالمقدم مؤخرا معطوفا عليه(١٦).

كل هذه الأساليب داخلة في القلب عند اللغويين، فهم أوسع المذاهب في معناه؛ إذ هم قد وسّعوا دلالته اتكاء على المعنى اللغوي ليشمل كلّ ما يقال ويراد عكسه سواء أكان ذلك بالتقديم والتأخير أم باستعمال التضاد أم غير ذلك، والضابط لكل هذا اتضاح المعنى، فمتى اتضح المعنى المراد جاز للمتكلم التقديم والتأخير وغير ذلك من مظاهر القلب؛ إذ الحمل على المعنى - كما قال ابن جني - باب واسع جدا في هذه اللغة(١٧).

بناء على ما سبق من تعريف القلب عند اللغويين ستكون دراستنا لهذه الظاهرة عند الفراء من خلال معاني القرآن، والله الموفق للصواب.

ظاهرة القلب في معاني القرآن للفراء

أدرس تحت هذا العنوان الآيات القرآنية التي جاءت متضمنة لهذه الظاهرة مما تحدث عنه الفراء، - مرتبة حسب موقعها في المصحف الشريف -، مبينا في ذلك رأيه ورأي العلماء - إن احتيج إلى ذلك - ممن سبقه أو جاء بعده، ممن خالفه أو وافقه، ليتضح بذلك الموقف اللغوي من هذه الظاهرة وموقف الكوفيين على التحديد، وقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات كانت مظهرا لهذه الظاهرة اكتفى الفراء بالتعليق على بعضها، ومن ذلك:

١- قال تعالى: { كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ

أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴿١٥٢﴾} [سورة البقرة: ١٥١، ١٥٢].

قال الفراء تعليقا على هذه الآية: "(فاذكروني أذكركم): كما أرسلنا، فهذا جواب مقدم ومؤخر، وفيها وجه آخر: تجعلها من صلة ما قبلها لقوله: (أذكركم) ألا ترى أنه قد جعل لقوله: (فاذكروني) جوابا مجزوما، فكان في ذلك دليل على أن الكاف التي في (كما) لما قبلها"(١٨).

يرى الفراء أن في هذه الآية وجهين: الأول: أن تكون الآية من المقدم والمؤخر والتقدير: فاذكروني أذكركم كما أرسلنا فيكم رسولا، والثاني: أن يكون قوله: كما أرسلنا متعلقا بما قبله – وهو ما رجحه –(١٩)، والذي يعنيني في هذا هو تجويزه الوجه الأول لأنه الذي يحوي مظهرا من مظاهر القلب وهو التقديم والتأخير.

فالفراء يجوز التقديم والتأخير في الآية من غير اضطرار إليه إذ يمكن حمل الآية على غير هذا الوجه، ولذلك اختلف العلماء في جواز ذلك في هذه الآية، فذهب الطبري إلى إنكار ذلك بل شنع على قائله – معرضا بالفراء – قال: وقد قال قوم: إنّ معنى ذلك: فاذكروني كما أرسلنا فيكم رسولا منكم أذكركم. وزعموا أن ذلك من المقدم الذي معناه التأخير، فأغرقوا النزع، وبعدوا من الإصابة، وحملوا الكلام على غير معناه المعروف، وسوى وجهه المفهوم(٢٠)، ولكن الإمام أبا إسحاق الزجاج بعد أن ذكر القولين رجح الرأي القائل بالتقديم والتأخير فقال: والأجود أن تكون (كما) معلقة بقوله عزّ وجلّ (فاذكروني أذكركم)، أي فاذكروني بالشكر والإخلاص كما أرسلنا فيكم(٢١)، بل إن الأخفش لم يذكر فيها إلا وجها واحدا وهو وجه التقديم والتأخير، قال في تعليقه على: فاذكروني أذكركم أي: كما فعلت هذا فاذكروني(٢٢)، وقال أبو حيان في البحر المحيط: "وهذا قولُ مُجاهِدٍ وعطاءٍ والكلبيِّ ومُقاتِلٍ، وهوَ اختيارُ الأخفشِ والزّجّاجِ وابنِ كيسانَ والأصمِّ، والمعنى: أنكم كنتم على حالةٍ لا تقرءونَ كتابًا، ولا تعرفون رسولًا، ومحمّدٌ صلّى اللّهُ عليهِ وسلّمَ رجلٌ منكم، أتاكم بأعجبِ الآياتِ الدالّةِ على صدقِهِ فقال: كما أوليتكم هذهِ النّعمةَ وجعلتها لكم دليلًا، فاذكروني بالشّكرِ، أذكركم برحمتي، ويؤكّدهُ: لقدْ منّ اللّهُ على المؤمنينَ إذْ بعثَ فيهمْ رسولًا منْ أنفسهمْ"(٢٣).

فهذه النقول المتضافرة من العلماء بالعربية شاهد على جواز ما ذهب إليه الفراء من تجويز التقديم والتأخير في الآية، وبه يعلم أن قول الطبري في تعقبه على هذا القول بأنه: وإن كان مذهبًا من المذاهب، فليس بالأسهل الأفصح في كلام العرب.

والذي هو أولى بكتاب الله عز وجل أن يوجّه إليه من اللغات، الأفصح الأعرف من كلام العرب، دون الأنكر الأجهل من منطقها. هذا، مع بعد وجهه من المفهوم في التأويل[٢٤]، فيه ما فيه من التحامل على هذا القول ؛ إذ قد علمنا من قال به من أعلام المفسرين وعلماء العربية.

وبهذا يتبين لنا أن من مذهب الفراء في هذه الظاهرة تجويزها في فصيح الكلام وإن لم يُضطرّ إليها؛ فهي – إذن – عنده من الظواهر التي تأتي في الاختيار.

٢- قال تعالى: {وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ } [سورة البقرة: ١٧١].

قال الفراء: "أضاف المثل إلى الذين كفروا، ثمّ شبههم بالراعي، ولم يقل: كالغنم. والمعنى – والله أعلم – مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: أرعى أو اشربي، لم تدر ما يقول لها. فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول. فأضيف التشبيه إلى الراعي، والمعنى – والله أعلم – في المرعى"[٢٥]

يريد الفراء بهذا الكلام أن يبين أن في الآية قلبا، وبيان ذلك أن أصل اللفظ أن يكون: مثل الذين كفروا كمثل الغنم لا تفهم ما تخاطب به فهي لا تعي إلا وجود صوت صادر من راعيها فقط، فليست تعلم نوع الأمر أو النهي، ووجه الشبه عدم الاستفادة مما يقال لها، ولكن البيان الإلهي جاء بتمثيل الذين كفروا بالراعي وليس بالغنم فهذا وحه القلب، ثمّ مضى الفراء يبين ذلك فقال: " وهو ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد لأن الأسد هوَ المعروف بأنه المخوف، وقال الشاعر[٢٦]:

لقد خفت حتى ما تزيد مخافتي على وعلٍ في ذي المطارة عاقِل

والمعنى: حتى ما تزيد مخافة وعلٍ على مخافتي، وقال الآخر[٢٧]:

كانت فريضة ما تقول كما كان الزناءُ فريضةَ الرّجْمِ

والمعنى: كما كان الرجم فريضة الزناء، فيتهاون الشاعر بوضع الكلمة على صحتها لاتضاح المعنى عند العرب، وأنشدني بعضهم[٢٨]:

إن سراجًا لكريم مفخره تحلى بهِ العينُ إذا ما تجهره

والعين لا تحلى به، إنما يحلى هو بها "[٢٩].

ذكر الفراء في هذا النص الشواهد لهذه الظاهرة، والضابط لها، وحكمها، فساق ثلاث شواهد شعرية، تبين صحة هذا الأسلوب وفصاحته، ثم ذكر ضابطه: وهو أن المعنى إذا اتضح عند المخاطب جاز للمتكلم القلب لأمن اللبس حينئذٍ، وذكر حكمه من حيث القلة والقلة في كلامهم فبين أن ذلك كثير وظاهر من كلام العرب.

وقد ذهب بعض العلماء إلى غير ما ذكره الفراء في نصه السابق[٣٠]؛ إذ رأوا أن الآية على حذف مضاف، والتقدير: ومثل واعظ الذين كفروا كمثل الذي ينعق...، وإلى هذا ذهب ابن قتيبة[٣١]، والزجاج[٣٢]، والزمخشري[٣٣]، وهذا الرأي قد جوزه الفراء في الآية نفسها، قال: "وفيها معنى آخر: تضيف المثل إلى الذين كفروا، وإضافته في المعنى إلى الوعظ كقولك مثل وعظ الذين كفروا وواعظهم كمثل الناعق... وكل صواب"[٣٤]، وهذا – أي تصويبه للقولين – ما خالفه عليه ابن قتيبة، فقال مشنعا رأيه: كان بعض أصحاب اللغة يذهب في قول الله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ إلى مثل هذا في القلب، ويقول: وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم ... وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهبا، لأن الشعراء تقلب اللفظ، وتزيل الكلام على الغلط، أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت ... والله تعالى لا يغلط ولا يضطر[٣٥].

يرى ابن قتيبة أن القلب لا يكون في اللسان العربي إلا ضرورة من أجل الشعر، والله لا يحوجه شيء من ذلك، فلا يجوز القلب في كلامه سبحانه، ولا أدري ما الذي جعل ابن قتيبة – رحمه الله – يعجل في حكم كهذا، إذ لا يسلم أن القلب لا يكون إلا في الشعر، وقد مثل الفراء وهو ممن سمع العرب على مثال نثري للقلب، ومن أمثلتهم الشهيرة فيه، أدخلت الخاتم في إصبعي، وعرضت الناقة على الحوض، وأدخلت الخاتم في إصبعي، وغير ذلك من الأمثلة النثرية، وحتى إن سلمنا بأن القلب لا يقع إلا في الشعر، فالقرآن قد نزل بكلام العرب جاريا على سننهم في الخطاب النثري والشعري، وابن قتيبة نفسه قال ذلك في تأويل مشكل القرآن: لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلها[٣٦]، ومن قبله قال أبو عبيدة: وفي القرآن مثل ما في

الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب، والمعاني [٣٧]، فهذا يدل على جواز القلب في كلام الله، ويؤيد ذلك ذهاب كثير من علماء اللغة إلى تجويز ذلك، ومنهم أبو عبيدة [٣٨]، والأخفش [٣٩]، وابن جرير الطبري [٤٠]، والواحدي [٤١]، قال الواحدي: وقول الفراء صحيح وإن أنكره ابن قتيبة، موافق لمذاهب العرب في فنون مخاطباتها، فإنهم يفعلون الشيء للضرورة، ثم يصير وجهًا ومذهبًا لهم في الكلام، حتى يجيزوه وإن لم تدع إليه ضرورة [٤٢].

وبهذا يعلم صحة ما ذهب إليه الفراء من تجويزه القلب في هذه الآية [٤٣].

٣- قال تعالى: {كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾} [سورة البقرة: ٢١٣]

عندما تناول الفراء هذه الآية بالتفسير أورد فيها معنيين، الأول لا يترتب عليه قلب، وأما الثاني فيترتب عليه قلب في الدلالة وهذا الذي يعنينا، قال الفراء: " فيها معنيان ... والوجه الآخر أن تذهب باختلافهم إلى التبديل كما بدلت التوراة. ثمَّ قال (فهدى الله الذين آمنوا) به للحق مما اختلفوا فيه. وجاز أن تكون (اللام) في الاختلاف و(من) في الحق كما قال الله تعالى: (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق) والمعنى - والله أعلم - كمثل المنعوق به لأنه وصفهم فقال تبارك وتعالى: (صمٌ بكمٌ عميٌ) كمثل البهائم" [٤٤].

فهو يرى أن الآية محتملة للقلب، ووجه ذلك أن معنى الآية - على هذا الوجه - فهدى الله الذين آمنوا للحق من الأمور المختلف فيها، فأنت ترى أن أصل الكلام أن يدخل حرف الجر اللام على كلمة الحق، ويدخل حرف الجر (مِن) على الاختلاف ولكن البيان الإلهي قلب بينهما، ثم أيد هذا القول بالاستشهاد بالنظير، وهي الآية التي سبقتها في الدراسة فهي نظير هذه الآية من حيث القلب، وقد سبق بيان وجه القلب فيها واختلاف العلماء في ذلك، وذكر في تتمة النص الشواهد الشعرية في التي استشهد بها في الآية قبلها، وهو بذلك يؤكد وجود القلب في الآية، وهو ما نقله عنه ابن عطية [٤٥]، ولكنه خالفه في جواز ذلك فقال: ودعاه إلى هذا التقدير

خوف أن يحتمل اللفظ أنهم اختلفوا في الحق فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه وعساه غير الحق في نفسه، ثمّ بيّن ابن عطية رأيه في هذه المسألة فقال: وادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة تدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر، وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ورصفه[٤٦]، ووافقه على ذلك أبو حيان فقال: وهو حسن والقلبُ عِنْدَ أصحابنا يَخْتصُّ بضَرُورةِ الشِّعْرِ فلا نخرّج كلام اللهِ عليهِ[٤٧]، أقول ولعل ابن عطية – عفا الله عنه – قد تجاوز في ذلك وبالغ في الرد، وما أبو زكريا الفراء – أعلى الله مناره – بالذي يعجز رأيه ويسوء نظره في كتاب الله، ولكنه يذهب إلى أن القلب كما جاء في كلام العرب يجوز أن يجيء في القرآن النازل بكلامهم ومذاهبهم في القول، ثمّ إنه – رحمه الله – لغزير علمه ودقة نظره كان قد ذكر وجها في هذه الآية قبل هذا الوجه لا تحمل الآية فيه على القلب، فأين العجز من ذلك؟، وليس مثلُ الفراء مَنْ يعجزُ، ثم إن شيخ المفسرين قد وافق الفراء، قال الطبري: "فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾؟ أهداهم للحق، أم هداهم للاختلاف؟ فإن كان هداهم للاختلاف فإنما أضلهم! وإن كان هداهم للحق، فيكف قيل ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه﴾؟ قيل: إن ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما معنى ذلك: فهدى الله الذين آمنوا للحقّ فيما اختلف فيه من كتاب الله الذين أوتوه، فكفر بتبديله بعضهم، وثبت على الحق والصواب فيه بعضهم – وهم أهل التوراة الذين بدلوها – فهدى الله مما للحقّ بدّلوا وحرّفوا، الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال أبو جعفر: فإن أشكل ما قلنا على ذي غفلة، فقال وكيف يجوز أن يكون ذلك كما قلت، و﴿مِنْ﴾ إنما هي في كتاب الله في﴿الحق﴾ و﴿اللام﴾ في قوله: ﴿لما اختلفوا فيه﴾، وأنت تحول﴿اللام﴾ في﴿الحق﴾، و﴿من﴾ في﴿الاختلاف﴾، في التأويل الذي تتأوله فتجعله مقلوبا؟ قيل: ذلك في كلام العرب موجودٌ مستفيضٌ، والله تبارك وتعالى إنما خاطبهم بمنطقهم، فمن ذلك ..."[٤٨]، ثم ساق الشواهد الشعرية الدالة على وجود القلب وكثرته في الكلام العربي، وإنما نقلت كلام الطبري بحروفه ليتبين ما في كلام ابن عطية من المجازفة بحق الإمام أبي زكريا.

وقبا أن أختم الكلام على هذه الآية لا بد من ذكر التعقيبة التي أنهى بها الفراء نصّه السابق في تحليله لهذه الآية، قال بعد أن ذكر شواهد القلب، ومنه قول الشاعر[٤٩]:

إن ســـراجًا لكريم مفخـــــره   تحلى بهِ العَينُ إذا ما تجهـــره

قال: "والعين لا تحلى إنما يحلى بها سراج، لأنك تقول: حليت بعيني، ولا تقول حليت عيني بك إلا في الشعر"[٥٠].

فقوله: ولا تقول ... إلا في الشعر، يستوقف القارئ ويجعله يمعن النظر جيّدا، ويربط كلامه أوله بآخره؛ إذ الكلام يأخذ بعضه بحجز بعض، وعبارته هذه تحتمل عدة أمور:

الأول: أن يكون القلب خاصا بالشعر وحده.

ويرد هذا الرأي أن الفراء اختار في عدد من الآيات –كما سبق وكما سيأتي– وجود القلب فيها، وجوّزه في آيات أخرى مع إمكان حمل الآية على وجه آخر صحيح من غير قلب، فهذا يدل على أن القلب عنده جائز في القرآن على السعة.

الثاني: أن يكون القلب خاصا بالشعر ويلحق به كلام الله.

هذا محتمل ولكن يرده أن ما كان مختصا بالشعر لا يحمل عليه كلام الله إلا في الضرورة، كما في صرف الممنوع من الصرف[٥١]، ولوكان كذلك لما حمل عليه الفراء كلام الله مع جواز حمل الآية على غير القلب وبهذا يتوجه إنكار ابن عطية على الفراء، فلو كان الفراء يرى أن القلب لا يكون في القرآن إلا للضرورة لكان رأيه وابن عطية سواء، ويرد هذا الاحتمال أيضا نصه السابق في الآية قبلها، فقد ذكر أنه ظاهر معروف من كلام العرب[٥٢]، وأورد عليه شاهدا نثريا، وما كان كذلك لا يكون خاصا بالشعر.

الثالث: أن يكون القلب سماعيا لا قياسيا.

بمعنى أنه إن سمع عن العرب في فصيح قولهم نثرهم أو شعرهم جاز، وما لم يسمع لا يجوز، ويرد هذا أيضا أنه لو أراد ذلك لصرح به، ثم إنه لو كان كذلك لما كان للتخصيص بالشعر في قوله: ولا تقول .. إلا في الشعر، فائدة؛ إذ السماعي لا يختص بالشعر دون النثر.

الرابع: أن يكون قوله: ولا تقول حليت عيني بك إلا في الشعر. خرّج مخرج الغالب.

أي أن الغالب أن يكون القلب في الشعر دون النثر؛ إذ هو خلاف الأصل، فالشعراء يحتاجون إليه أكثر من غيرهم، وهذا لا يعني أن القلب لا يكون إلا فيه، أو أنه لا يكون إلا سماعيا، أو أن القرآن لا يحمل عليه إلا اضطرارا، بل يكون في الشعر

وغيره، ويجوز أن يقاس ويخاطب به إذا اتضح المعنى عند المخاطب، ويحمل عليه القرآن ولو في غير الضرورة، والذي حملني على ذلك تتبع كلام الفراء في هذه المسألة.

- حمله كثيرا من الآيات على القلب يدلّ على أن القلب ليس خاصا عنده بالشعر وحده، ولوكان كذلك لما جوزه في القرآن.

- تجويزه في كثير من الآيات القلب – كما مرّ وكما سيأتي – مع جواز حمل الآية على غير القلب، كما يصرح به هو؛ إذ يذكر في الآية احتمالين أو أكثر يقتضي أحدهما وجوب حمل الآية على القلب، والوجه الآخر لا يقتضيه، وتراه يذكرهما من غير ترجيح بينهما، يدلّ على أن القلب في مذهبه لا يختص بالضرورة؛ إذ لو كان كذلك لما جوّز القلب من غير اضطرار إليه، فهو جائز عنده ولو في سعة الكلام.

- نصوصه في تعليقاته على مواطن القلب تقتضي أنه يكون في النثر والشعر، وفي الضرورة والسعة، وأنه جائز متى ما عرف المعنى ولم يحدث اللبس، فمن ذلك قوله: "وهو ظاهر فِي كلام العرب أن يقولوا: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد لأن الأسد هوَ المعروف بأنه المخوف"[٥٣]، ففي هذا النصّ يشير إلى الكثرة بقوله: وهو ظاهر في كلام العرب، وما كان كذلك كان قياسيا، ويؤيده بمثال نثري، مما يدلّ على أن القلب غير مختص بالشعر، ومن نصوصه أيضا قوله: "فيتهاون الشاعر بوضع الكلمة على صحتها لاستضاح المعنى عند العرب"[٥٤]، فمتى اتضح المعنى جاز لك أيها المتكلم القلب، ويؤكد هذا الأمر بقوله – في تحليله لموطن آخر من مواطن القلب – : "وَقَدْ تضع العرب الحرف فِي غير موضعه إذَا كَانَ المعنى معروفا"[٥٥]، فاتضاح المعنى ومعرفته للمخاطب يسوّغ القلب في الكلام سواء أكان في الشعر أم النثر.

وبهذا يظهر – والله أعلم – أنّ مذهب الفراء في هذه الظاهرة – ظاهرة القلب – أنها واقعة في الفصيح من كلام العرب شعرهم ونثرهم وقوعا ظاهرًا – كما نصّ عليه – بحيث لا يمكن أن يحمل وقوعها في كلامهم على الشذوذ أو الندر وما شابه ذلك، وما كان كذلك يجوز القياس عليه، والتخاطب به، وحمل الفصيح من الكلام عليه – ولو من غير ضرورة – ، ومن ذلك كلام الله، فهي واقعة في القرآن الكريم، وجائزة في الشعر والنثر، بشرطٍ واحد وهو أن يتضح المعنى لدى المخاطب ويأمن اللبس في الدلالة.

٤- قال تعالى: {إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾} [سورة آل عمران: ٥٥]

يذكر الله في هذه الآية شأن عيسى عليه السلام، فالله يخاطبه بأنه سيرفعه ويطهره من الذين كفروا ويتوفاه، ولكن جاءت الآية على غير هذا الترتيب، وذلك أن أسلوب الآية بدأ بالوفاة قبل الرفع، ومعلوم أن الوفاة لا تكون إلا بعد الرفع والإنزال إلى الأرض مرة أخرى وعند ذلك يتوفاه الله، وهذا ما جعل الفراء يرى أن في الآية قلبا بتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم[٥٦]، فقال: "يقال: إن هذا مقدم ومؤخر. والمعنى فيه: إني رافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا "[٥٧]، وهذا يدل أن الفراء يرى أن قوله: (ومتوفيك) تدل على الموت الذي في نهاية الحياة الدنيوية، وقد اختلف العلماء في هذه الآية اختلافا بينا، وهذا الاختلاف مبنيّ على نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، فمنهم من رأى أن معنى متوفيك أي: وفاة منام، وهو قول الحسن البصري[٥٨]، ومنهم من يرى أن معنى الوفاة: القبض، كما يقال توفيت من فلان مالي، وهو القول الآخر للفراء، قال: "وقد يكون الكلام غير مقدم ولا مؤخر فيكون معنى متوفيك: قابضك كما تقول: توفيت مالي من فلان: قبضته من فلان. فيكون التوفي على أخذه ورفعه إليه من غير موت"[٥٩]، وقد ذكر هذا القول: الطبري[٦٠] والزمخشري[٦١]، وجاء في الآية أقوال أخرى غير هذه الأقوال لا تخلو من تكلف في الرأي واعتساف في القول ويمكن إرجاع بعضها إلى الأقوال المذكورة[٦٢]، والذي يظهر أن حمل الآية على ظاهرها من الوفاة الحقيقية هو الأولى لأن حملها على النوم بالنسبة لعيسى لا معنى له لأنه إذا أراد رفعه لم يلزم أن ينام ولأن النوم حينئذ وسيلة للرفع فلا ينبغي الاهتمام بذكره وترك ذكر المقصد، فالقول بأنها بمعنى الرفع عن هذا العالم إيجاد معنى جديد للوفاة في اللغة بدون حجة[٦٣] وقد حمل الآية على الوفاة الحقيقية ابن عباس كما في تفسير الطبري[٦٤]، وممن وافق الفراء أيضا في أن البيان الإلهي في هذه الآية مشتمل على التقديم والتأخير أبو إسحاق الزجاج، فقد جاء في معاني القرآن وإعرابه له ما نصه: "تقديم وتأخير، المعنى: إني رافعك ومطهرك ومتوفيك"[٦٥]، فهذا يؤكد وجاهة ما ذهب إليه الفراء.

٥- قال تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ
حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا
تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ
صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ } [سورة آل عمران:١٥٢]

تذكر الآية خبر المسلمين في غزوة أحد، وذلك أن المؤمنين حين قفلوا منها قالوا من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر فنزلت هذه الآية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل أحدا خلف ظهره، واستقبل المدينة وأقام الرماة عند الجبل، وأمرهم أن يثبتوا في مكانهم ولا يبرحوا - كانت الدولة للمسلمين أو عليهم - فلما أقبل المشركون جعل الرماة يرشقون خيلهم، والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا والمسلمون على آثارهم. يحسونهم: يقتلونهم قتلا ذريعا، حتى تنازعوا، فقال بعضهم: قد انهزم المشركون فما موقفنا هاهنا؟ وقال بعضهم: لا نخالف أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب نفر من الرماة على أعقاب المشركين ينهبون، وهم الذين أرادوا الدنيا، فكرّ المشركون على الرماة، حتى هزموهم وقتلوا من قتلوا.

فأنت ترى أن التنازع كان قبل الفشل والهزيمة؛ إذ كانت الهزيمة بسبب هذا التنازع السابق، وظاهر سياق الآية يفيد عكس ذلك، فلذلك ذهب الفراء إلى أن ألفاظ هذه الآية فيها قلب بالتقديم والتأخير، قال: "يقال: إنه مقدم ومؤخر معناه: حتى إذا تنازعتم فى الأمر فشلتم"(٦٦).

وفي هذا إجراء لمعنى كلمة: (الفشل) على ظاهرها من الهزيمة والخسارة، غير أن بعض العلماء ممن ذهب إلى عدم وجود قلب في هذه الآية اضطر إلى تأويل هذا اللفظ وإيراد معنى آخر له، فالزمخشري يرى أن الفشل هنا هو الجبن والضعف(٦٧)، وإذا كان كذلك فالجبن وقع أولا ثم التنازع، ويكون الترتيب على حسب الوقوع، ومثله في ذلك أبو حيان(٦٨).

وبالرجوع إلى معاجم العربية نجد أن معاني الفشل لا تأبى قبول الرأي الثاني القائل بأن الفشل هو الجبن، قال الخليل: وقد فشل يفشل عند الحرب والشدة ويضعف، وإنه لخشل فشل، والفشل: الجبان المرعوب، يُبهت عند الروع، لا يحسن قتالا

ولا شِرادا، أي: هربا[٦٩]، وقال الجوهري في الصحاح: الفَشِلُ: الرجل الضعيف الجبان[٧٠].

غير أن قبول المعاجم لهذا المعنى لا يعني كونه هو المقصود من الآية، بل الذي يظهر أن رأي الفراء في تفسيرها أولى لعدة أمور:

أولا: أن أصحاب المغازي والسير حين ذكروا خبر غزوة أحد لم يذكر فيه أحد أن الرماة جبنوا وضعفوا، بل المذكور – كما في الآية – أنهم أرادوا جبي الغنائم مع بقية المسلمين[٧١].

ثانيا: أن في ذلك تفسيرا للفشل على ظاهره وهو الهزيمة.

ثالثا: أن خير ما يفسر به القرآن هو القرآن، وقد جاء في السورة نفسها – سورة آل عمران – **قول الله تعالى**: {وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾} [سورة الأنفال:٤٦]. فأنت ترى أن الفشل مُسبَّبٌ عن التنازع، فالتنازع أولا ثم الفشل الناتج عن التنازع ثانيا، فكذلك في الآية – موضوع البحث – يكون الفشل مسببا عن التنازع السابق قبله، والله أعلم. قال الله تعالى: { لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ } [سورة التوبة:٤٧]

تصف هذه الآية حال المنافقين مع المسلمين حين أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجهاد لِغَزْوَةِ تَبُوكَ، فإنه لما سار رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَخَلَّفَ عَنْهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ فِيمَنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ الرَّيْبِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى يُعَزِّي نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: لو خرجوا فيكم لم يزيدوكم إلا فسادًا وشرًا. أي سيوقعون الجُبْنَ وَالْفَشَلَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بتَهْوِيلِ الْأَمْرِ وسيسرعون وَسَطَكُمْ بِإِيقَاعِ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ بَيْنَكُمْ بِالنَّمِيمَةِ وَنَقْلِ الْحَدِيثِ مِنْ بَعْضٍ إِلَى بَعْضٍ[٧٢].

فالآية تريد إثبات أن المنافقين يريدون الفتنة للمؤمنين، فالفتنة هي المرادة وهي المفعول للفعل: (يبغون)، غير أن نظم الآية لم يكن كذلك، فترتيب كلمات

الآية جعل المبْغيَ هم المؤمنين لا الفتنة، قال تعالى: (يبغونكم)، ولم يقل يبغونها لكم، وهذا ما جعل الفراء يتنبه لذلك فرأى أن الترتيب التي وردت عليه الآية فيه قلب إذ الأصل أن تكون الفتنة هي المفعول وكاف الخطاب مجرورة باللام، وورودها بغير هذا الترتيب يعني أن في الآية قلبا، قال:" المعنى: يبغونها لكم"(٧٣).

ومنه قول كعب بن زهير(٧٤):

إذا ما نتجْنا أربَعا عام كفأةٍ بغاها خناسِيرا فأهلكَ أربعا

أي: بغى لها خنَاسِيرَ وهِي الدّواهِي(٧٥)، وعلى هذا جاء النظم القرآني؛ إذ هو نازل بلغة العرب وأساليبهم في الكلام.

٦- قال تعالى: {وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ} [سورة هود: ٧١]

يتحدث الله سبحانه في هذه الآيات عن خبر إبراهيم مع ضيوفه الملائكة الذين أدخلهم في بيته، ويختمها بما حصل بين الملائكة وامرأته سارة، وكان من خبره أنه أكرم وفادة الضيوف وهو لا يعلمهم فلما قدم لهم الأكل فلم يأكلوا خشي من ذلك، فأمنوه وقالوا لا تخف، فضحكت امرأته، وقد اختلف العلماء في معنى الضحك وفي سببه، فالجمهور من اللغويين والمفسرين أن الضحك هو المعروف، و قيل الضحك هنا الحيض(٧٦)، وعلى رأي الجمهور أن الضحك هو المعروف قيل هو من باب المجاز والمراد به طلاقة الوجه والسرور، وقيل هو على حقيقته، وعلى كلٍّ فسبب الضحك يحتمل عدة أمور: أنها ضَحِكَتْ مِنْ شِدَةِ خوفِ إبْراهِيمَ وهُوَ فِي أهله وغلمانه. والذين جاؤوه ثلاثة، وهِيَ تعهدُهُ يغْلِبُ الأرْبعِينَ، وقيل ضحِكَتْ مِنْ غَفْلَةِ قوْمِ لوطٍ وقُرْبِ العذابِ مِنهُمْ، ضَحِكَتْ مِنْ إمْساكِ الأضْيافِ عَنِ الأكْلِ وقالتْ: عجبًا لِأضْيافِنا نخدُمُهُمْ بأنْفسِنا، وهمْ لا يأكُلونَ طعامَنا، وقيل أنَّ ضَحِكَها كانَ سُرُورًا بصِدْقِ ظنِّها، لِأنها كانَتْ تقولُ لِإبْراهيمَ: اضْمُمْ إليْكَ ابنَ أخِيكَ لوطا وكانَ أخاها، فإنّهُ سيَنْزِلُ العذابُ بقوْمِهِ(٧٧). قال الفراء: وكان المعروف فِي زمانهم أنهم إذا ورد عليهم القوم فأتوا بالطعام فلم يمسّوه ظنّوا أنهم عدوٌّ أو لصوص. فهنالك أوجس فِي نفسه خيفة فرأوا ذلِكَ فِي وجهه، فقالوا: لا تخف، فضحكت عند ذلِكَ امرأته(٧٨).

وهذا يدل على أن المراد بالضحك في الآية الضحك المعروف، ولعل هذا هو الأظهر فليس المقصود هو الحيض؛ وذلك لذهاب جمهور المفسرين إلى أن المقصود هو

الضحك المعروف، ولعدم إحالته حتى يحتاج إلى خروج الضحك عن المتبادر للذهن، ولتصريح علماء العربية بضعف الرأي القائل بأن الضحك هو الحيض، فالفراء نفسه قال: وأما قوله: (فضحكت) : حاضت فلم نسمعه من ثقة،[٧٩] وقال الزجاج: فأما من قال: ضحكت: حاضت فليس بشيء[٨٠].

وعلى هذا القول يكون ترتيب الآية على ما هو عليه في السياق القرآني من غير تقديم ولا تأخير، فالخوف حاصل أولا، ثم تأمين الملائكة لإبراهيم، ثم تبشيرهم.

على أن من العلماء من ذهب إلى أن في الآية قلبا بالتقديم والتأخير، وأن التقدير: فبشرناها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب فضحكت، قال الفراء – رحمه الله – : وقد يقول بعض المفسرين: هذا مقدّم ومؤخر. والمعنى فِيهِ: فبشّرناها بإسحاق فضحكت بعد البشارة وهو مِمّا قد يحتمله الكلام والله أعلم بصوابه.[٨١]

والذي قد يبدو للنظرة العجلى أن هذا القول لجوء إلى التأويل بالتقديم والتأخير من غير موجب، وتأويل الآية بخروجها عن مقتضى ظاهر السياق مع احتمال الظاهر تعسّف في القول، غير أن إمعان النظر في الآية، وجمع النظير إلى نظيره يقتضي غير ذلك.

عند النظر في آيات البشارة لهذه القصة في القرآن الكريم نجدها متعددة، فقد وردت في سورة هود، والحجر[٨٢]، والصافات[٨٣]، والذاريات[٨٤]، غير أن التي فيها ذكر لزوجته هي في سورة هود والذاريات، قال تعالى:

{هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾} [سورة الذاريات: ٢٤ – ٢٩].

تذكر هذه الآية الخبر السابق في سورة هود، وترتيب هذه الآية يصرح بأن البشارة كانت قبل قدوم المرأة، فعندما خشي إبراهيم عليه السلام منهم، أمّنوا خوفه وزادوا ذلك بأن بشروه بالغلام فعند ذلك أقبلت المرأة وجرى ما جرى.

وهذا يؤيد ما جوزه الفراء في نصه السابق، قال في التحرير والتنوير: وأما البشرى فقد حصلت قبل أن يخبروه بأنهم أرسلوا إلى قوم لوط كما في آية سورة

الـــذاريات: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨﴾. فلمـــا اقتضـــى ترتيب المحاورة تقديم جملة قالوا لا تخف حكيت قصة البشرى وما تبعها من المحاورة بطريقة الحال، لأن الحال تصلح للقبلية وللمقارنة وللبعدية، وهي الحال المقدرة، وإنما ضحكت امرأة إبراهيم – عليه السلام – من تبشير الملائكة إبراهيم – عليه السلام – بغلام، وكان ضحكها ضحك تعجب واستبعاد(٨٥).

والذي يعنينا من ذلك أن القول بالقلب في الآية وأن سبيله التقديم والتأخير قول قوي مبني على تفسير القرآن بالقرآن، وهو أقوى طرق التفسير، وأنه قد قال به بعض السلف منهم: وهب بن منبه(٨٦)، وهو مروي عن ابن عباس(٨٧)، وأن الفراء يجوز ذلك في الآية، فقد قال: "وهو مما قد يحتمله الكلام والله أعلم بصوابه"(٨٨)، وهذا يدل أن أسلوب القلب – عنده – ليس أسلوبا ضيقا لا يلجأ إليه إلا عند الحاجة والاضطرار، بل هو صحيح يجوز حمل الكلام عليه، وإحالة المعنى عليه، ولو في السعة من الكلام، وقد سبق بيان مذهبه في ذلك، والله أعلم.

٧- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ﴾ [سورة الرعد:٣٨]

اختلف المفسرون في دلالة قوله تعالى: لكل أجل كتاب، فذهب بعضهم إلى أن المقصود: لكل كتاب نزل من السماء أجلٌ وزمن معين لا يتعداه، وممن ذهب إلى هذا القول الضحاك(٨٩)، والفراء(٩٠)، قال الفراء: "جاء التفسير: لكل كتاب أجل."(٩١)، وفيه أن الآية عند الفراء مما جرى فيها القلب بالتقديم والتأخير؛ إذ التقدير: لكل كتاب أجلٌ، فقدم وأخر، وقد ردّ أبو حيان رأي الفراء بناء على مذهب البصريين من عدم القول بالقلب إلا في الضرورة فقط(٩٢)، وقد سبق مناقشة هذا القول وبيان الرأي فيه.

وقيل معنى الآية: لكلِّ أجلٍ: أي أمرٍ قضاه الله، كتاب قد كتبه فهو عنده، وهذا قول الطبري(٩٣)، وقيل: معناه لكلِّ وقتٍ حكمٌ يُكتب على العباد، أي: يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم، وهو قول الزمخشري(٩٤).

هذه أشهر الأقوال في هذه الآية، وثم أقوال أخرى(٩٥)، ولبيان أقوى هذه الأقوال لا بد من الرجوع لسياق الآية وفهم المعنى الإجمالي، فالله يريد في هذه الآية أن يرد

الله على المشركين ويبطل توهمهم أن تأخر العذاب عنهم يدل على عدم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويبين ذلك عدة آيات لها تعلق بالموضوع نفسه، فقد قالوا: {وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾} [سورة الأنفال: ٣٢]، فرد الله عليهم بقوله: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ} [سورة العنكبوت: ٥٣].

فهذه الآيات آخذ بعضها بحجز بعض، وباجتماعها يتبين المقصود من آية الرعد، فالمعنى الذي تحمله آية الرعد أن كل شيء مكتوب عند الله، قد قدر الله له زمنه المعين لا يتجاوزه بالتقدم ولا التأخر من أجل مشيئة البشر، فإذا علمنا ذلك وكان ترتيب ألفاظ آية الرعد جاء: لكل أجل كتاب، علمنا أن فيها قلبا، وأن التقدير: لكل كتاب مقدر أجل وزمن لا يتعداه فلا تستعجلوا العذاب - أيها المشركون - فإن كل شيء له أجله.

وبهذا يتبين أن الذي ذهب إليه الفراء في الآية هو أقرب إلى المعنى المراد، هذا بالإضافة إلى أن من ذهب إلى غير ذلك أخرج بعض الألفاظ عن مدلولها، فالطبري فسّر الأجل بالأمر، وليس الأجل هو الأمر، والزمخشري فسّر الكتاب بالحكم فذهب إلى أن معنى الكتاب هو الحكم الذي يكتب في الكتاب، ولا يخفى ما في ذلك من التكلف وادعاء الحذف من غير حاجة إليه، والله أعلم.

٨- قال الله تعالى: {۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾} [سورة القصص: ٧٦]

هذه الآية أشهر آيات أسلوب القلب عند من قال به، وذلك أن الله سبحانه وتعالى يصف ما آتاه لقارون من الأموال العظيمة؛ فهي أموال تنوء مفاتيحها بالعصبة أولي القوة، وبناء على اختلافهم في معنى: تنوء، ومعنى الباء في الآية اختلفوا في وجود القلب.

الرأي الأول: أن في الآية قلبا، وأن معنى الآية لتتعب العصبة أولو القوة بحمل مفاتيح هذه الكنوز، فالتي تنوء هي العصبة، والباء في أصل التركيب داخلة على

المفاتيح، ولكن الأسلوب في الآية جاء على القلب، قال أبو عبيدة: "ومجازه: ما إنّ العصبة ذوى القوة لتنوء بمفاتح نعمه ويقال في الكلام: إنها لتنوء بها عجيزتها، وإنما هي تنوء بعجيزتها كما ينوء البعير بحمله، والعرب قد تفعل مثل هذا"[(٩٦)]، ثم ساق أمثلة وشواهد من كلام العرب على استعمالهم للقلب.

وبهذا الرأي أخذ الأخفش، قال في معاني القرآن: وقوله ﴿تَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ إنما العصبة تنوء بها[(٩٧)]، وإليه ذهب المبرد أيضا، قال: والمعنى أن العصبة تنوء بالمفاتح[(٩٨)].

الرأي الثاني: أن الآية خالية من القلب، وأن التركيب جار على أصله من غير تأويل، فمعنى الآية: تنوء المفاتيح بالعصبة، ومعنى تنوء: تميل من ثقلها، أو: تثقل، فالمفاتيح هي التي تنوء، ورأس من قال بذلك ابن قتيبة: "وأراد بقوله: ما إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ، أي: تميلها من ثقلها"[(٩٩)]، وشنع على من ذهب المذهب الأول، بناء على رأيه في امتناع وجود القلب في القرآن – وقد سبقت مناقشته في ذلك –[(١٠٠)].

وبهذا التفسير أخذ الطبري، قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾[(١٠١)]، وبهذا الرأي أخذ الزجاج، قال في معاني القرآن وإعرابه: ومعنى ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ لتثقل العصبة[(١٠٢)]، وتابعهم الزمخشري[(١٠٣)]، وعلى هذا الرأي تكون الباء للتعدية؛ إذ معنى تنوء بالعصبة: تُنيء المفاتيح العصبة[(١٠٤)].

وقد استشهد كل فريق لتقوية ما ذهب إليه من كلام العرب نثرها وشعرها، فشواهد الفريق الأول يكون فيها إسناد النوء إلى الرجل أو الشخص الذي ينوء فهو الفاعل للنوء، وشواهد الفريق الثاني يكون فيها إسناد إلى السبب الحامل على النوء، فمن شواهد الفريق الأول قول الشاعر[(١٠٥)]:

تَنُوءُ بها فتثقلها عجيزتها......

وقال ذو الرمة[(١٠٦)]:

تنوء بأخراها فلأيا قيامها وتمشي الهويني من قريب فتبهر

فالفاعل في كل ذلك هو الشخص، وإسناد الفعل إليه، وهذا يدل على وجود القلب في الآية؛ إذ الآية ورد فيها إسناد الفعل: تنوء إلى السبب وهو المفاتيح.

واستدل الفريق الثاني بما ورد من كلام العرب، فقد حكى أبو زيد: ناء بي الحملُ إذا أثقلني[(١٠٧)].

وقد ذهب هذا المذهب الخليل بن أحمد، جاء في العين: " ويَنُوءُ الحِمْلُ الثقيل بالبعير، أي: يميل، أي: يثقله" [١٠٨]، وهذا منسوب إلى سيبويه، كما في البحر المحيط لأبي حيان [١٠٩].

وبهذا المذهب قال أبو زكريا عليه الرحمة والرضوان، قال: نوؤها بالعُصْبة أن تثقلهم، والمعنى: ما إن مفاتحه لتنيء العصبة أي تميلهم من ثقلها فإذا أدخلت الباء قلت: تنوء بهم، وإذا حذفت الباء زدت في الفعل ألفًا في أوله [١١٠].

يريد الفراء بذلك أن الباء أفادت التعدية كما تفيده همزة التعدية؛ إذ أصل الفعل (ناء) لازم فإذا زدت الباء فكأنك زدت ألفا تقول : أناءني الحملُ،كما تقول : ناء بي الحملُ.

غير أنه لا يكتفي بهذا التحليل اللغوي لهذه الآية، بل يذكر الرأي الآخر ويعلق عليه مبديا فيه رأيه، قال: وقد قال رجلٌ من أهل العربية: إن المعنى : ما إن العُصْبة لتنوءُ بمفاتِحه فحوّل الفعل إلى المفاتح، فإن كانَ سَمِعَ بهذا أثرًا فهو وجه. وإلا فإن الرجل جهل المعنى [١١١].

يبين في هذا النص موقفه من القلب في هذه الآية، فيرى أن معنى كلمة: تنوء، لا يستدعي القلب، بل الأسلوب جار على أصله من غير تحويل، فمن ذهب إلى وجود القلب يلزمه أن يكون قد سمع من العرب إسناد الفعل تنوء إلى الأشخاص المثقلين لا إلى سبب الثقل، وهذا ما لم يسمعه الفراء فعلق القول على صحته بالسماع؛ لأن المعنى من غير قلب مستقيم جيّد جار على قواعد العربية وعلى المسموع عنده، ومعالجة الفراء لهذه الآية في النص السابق يعطينا ضابطا آخر من ضوابطها لديه: وهو أن القلب في الآيات القرآنية والأساليب العربية – وإن كان جائزا وواقعا – خلاف الأصل فلا يُحمل الكلام عليه إلا إن صح المعنى بالقلب وظهر ظهورا بينا واضحا وسمع عن العرب، وإلا فلا يتعسف له ويتأول من أجل القول به.

وهذا الضابط يبين لنا أن الفراء وإن كان ممن يجيز القلب في القرآن من غير اضطرار ولكنه لا يتوسع فيه من غير ضوابط تقيده وتضعه ضمن حدودٍ مضبوطة.

غير أن الرأي الأول له وجاهته – والله أعلم – ؛ وذلك لأن هذا الحرف: (تنوء) ومشتقاته: (ناء، وينوء، وغيرها) في كثير من كلام العرب – إن جاءت بعده الباء كما في الآية – يكون مسندا إلى الأشخاص التي تثقل أو تميل والباء فيها داخلة على سبب هذا الثقل أو الميل لا على المفعول، ومن هذه الشواهد:

قال الحارث بن حلزة اليشكري[١١٢]:

وتنــوءُ تثقِلهـــا روادِفهـــا فِعلَ الضَعيفِ ينُـوءُ بالوسَـــقِ

قال النابغة الشيباني[١١٣]:

تنوءُ بأحمالٍ ثِقالٍ، وكُلهـــا وقـــد غـرقت بالماء ريّانُ مُتأقُ

وقال حسان بن ثابت[١١٤]:

وقامَـــت ترائيـــكَ مُغدَودِنا إذا ما تنـــوءُ بـــهِ آدهـــا

وقد أشار أبو منصور الأزهري إلى أن النوء يسند إلى الشخص فقال: "قلت وأصل (النوء) الـمَيْل فِي شِقٍ"[١١٥]، وإذا كان كذلك علمنا أنه يسند إلى المائل لا إلى سبب الميل – إلا عند إرادة التجوز وإسناد الفعل إلى غير من هو له من باب المجاز المرسل ذو العلاقة السببية – فهذه النصوص تقوي الرأي القائل بالقلب في الآية، والله أعلم.

٩- قال تعالى {يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦} [سورة الزلزلة: ٦]

ذهب الفراء في هذه الآية مذهبا فريدا؛ إذ رأى أنها من الآيات التي وقع فيها قلب بالتقديم والتأخير، فهي مقدمة من مؤخر – على تعبيره – ، قال في تعليقه على هذه الآية: "مقدم معناه التأخير"[١١٦]، ولبيان ذلك نستحضر الآيات، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٦} [سورة الزلزلة: ٤ – ٦].

فالفراء يريد أن يشير إلى أن ترتيب الآيات: يومئذ تحدث أخبارها، ليروا أعمالهم، يومئذ يصدر الناس أشتاتا، ويبين ذلك نص الطبري في تفسيره حيث قال: قيل: إن معنى هذه الكلمة التأخير بعد (ليُرَوْا أعمالهم) قالوا: ووجه الكلام: يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها، ليُرَوْا أعمالهم، يومئذ يصدر الناس أشتاتا. قالوا: ولكنه اعترض بين ذلك بهذه الكلمة[١١٧].

وهذا رأي من فرائد آرائه – عليه الرحمة والرضوان – فجمهور المفسرين يرون أن الآيات على ترتيبها، فالناس تصدر أشتاتا ليروا جزاء أعمالهم[١١٨]، فرؤيتهم لجزاء أعمالهم من خير أو شر يكون بعد صدورهم متفرقين.

ولبيان الوجه في ذلك لا بد أن نعلم هذه الزلزلة هل هي في الدنيا أم في يوم القيامة، وهل المقصود بتحدثها بأخبارها تحدُثها بأعمال العباد عليها أم تحدُثها بقيام الساعة، وهل المقصود بصدورهم متفرقين صدورهم وخروجهم من قبورهم إلى العرض أم خروجهم وصدورهم بعد الحساب إما إلى الجنة أو النار؟ وعند الرجوع إلى كتب التفسير نجد أن كل هذه الآراء محتملة(١١٩)، وعليه فإن قلنا بأن تحدثها بأخبارها هو تحدثها بما عمل عليها العباد من أعمال وأن صدورهم المذكور في الآية هو صدورهم إلى الجنة أو النار فحينئذ يقوى وجه القلب الذي قال به الفراء، ويكون المعنى أنها تحدث بعمل العباد عليها فيرون أعمالهم التي عملوها ثم يصدرون متفرقين، ويقوي هذا التفسير ما أورده أبو هريرة مرفوعا في تأويل هذه الآية حيث قال: قرأ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) قَالَ: ((أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا))؟ قالوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: ((فَإِنَّ أَخْبَارَهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا))، قَالَ: ((فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا))(١٢٠).

والذي يعنينا من ذلك هو رؤية الفراء لهذه الظاهرة، فنصه في تحليله لهذه الآية يفيد أنه لا يرى بأسا بالقول بها والذهاب إلى وجودها في القرآن والكلام العربي وإن لم تدع الحاجة إلى ذلك، بل قد يقتصر على القول به في التحليل – كما في هذه الآية – وإن كان الرأي الآخر القائل بعدم وجود القلب قويا ظاهرا، مفيدا بذلك أن لهذه الظاهرة من الكثرة والمكانة في الكلام العربي ما يمكننا من القول بوجودها في الأساليب العربية وإن احتمل الأسلوب غير ذلك، بل يمكن الاقتصار عليه – والحالة هذه – في الشرح والتحليل للكلام العربي من غير حرج ولا تثريب، والله أعلم.

الخاتمـــــة

بعد انتهاء هذا البحث والنظر في معالجة الفراء لهذه الظاهرة من خلال نصوصه المفسرة للآيات القرآنية، يمكن استنتاج ما يلي:

١- للقلب عدة معان لغوية، منها ما له علاقة بالمعنى الاصطلاحي ومنها ما ليس كذلك.

٢- تداول هذا اللفظ –القلب– علماء الفنون في مجالاتهم المعرفية، فحده كلٌ بحسب فنه.

٣- اختلف علماء العربية في تعريفهم لهذا المصطلح، فعلماء الصرف يعرفونه بما يختلف عن تعريف علماء البلاغة.

٤- تعريف القلب عند علماء اللغة يقرب من تعريفه عند البلاغيين غير أنه عند اللغويين أوسع في الدلالة.

٥- من مظاهر القلب اللغوي: أن يوصف الشيء بضد صفته، ومنه تقديم ما لو أخّر لكان أوضح في المعنى، وتأخير ما لو قدم لكان أوضح في المعنى، ومنه تقديم المؤخر.

٦- ظاهرة القلب من الظواهر التي جوز الفراء وقوعها في القرآن الكريم خلافا لغيره من العلماء.

٧- مذهب الفراء أن هذه الظاهرة من الظواهر الجائزة في سعة الكلام من غير اضطرار– خلافا للمذهب البصري –.

٨- للقلب عدة مظاهر عالجها الفراء في الآيات القرآنية، فمن ذلك: التقديم والتأخير، وإسناد الفعل لغير من هو له، والقلب بين حرفين من حروف الجر بوضع أحدهما مكان الآخر ونقل الآخر إلى موضع الأول.

٩- ضابط هذه الظاهرة لدى الفراء: أن المعنى إذا اتضح لدى المخاطب جاز للمتكلم القلب لأمن اللبس حينئذ.

١٠- ذكر الفراء مدى انتشار هذه الظاهرة، فبين أن ذلك ظاهر وكثير من كلام العرب.

١١- نصوص الفراء في هذه الظاهرة مختلفة لا بد من ربط بعضها ببعض لكيلا يقع التناقض بينها.

١٢- جعل اللفظ على ظاهره والذهاب إلى وجود القلب في الأسلوب أولى – عند الفراء– من تأويل الألفاظ وإخراجها عن ظاهرها.

١٣- ربما احتمل الكلام عدة تفسيرات، منها تفسير يلزم منه القلب فلا يمنع أحد التفسيرين الآخر، بل يذكرهما الفراء سويا، فهما في مرتبة واحدة عنده، وذلك لكثرة هذه الظاهرة.

١٤- عند الرجوع – في كثير من الأحيان – إلى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بالآية المفسَرة يتبين لنا وجاهة ما يذهب إليه الفراء، وهذا دليل على سعة علمه وضمه النظير إلى نظيره.

١٥- القلب في العربية – وإن كان جائزا وواقعا بكثرة – لا يحمل عليه الكلام إلا لإن صح المعنى بالقلب وظهر ظهورا واضحا ولم يخالف المسموع عن العرب، إلا فلا يتعسَف له.

١٦- قد يقتصر الفراء في تحليله للآيات على القول بوجود القلب فيها وإن احتمل معنى غير ذلك، لكثرة هذه الظاهرة وجوازها في السعة، فهي ترقى – عنده – إلى المصاف المتقدمة للظواهر اللغوية.

الهوامش

(١) المراد به جُمَّارَتها، وهو المسمّى في لهجة الأحساء وما حولها: الجذبة.

(٢) العين ٥/ ١٧١.

(٣) جمهرة اللغة ١/ ٣٧٣.

(٤) الأنواء في مواسم العرب: ٧٠.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٠.

(٦) تهذيب اللغة ٩/ ١٤٣.

(٧) مقاييس اللغة ٥/ ١٧.

(٨) معجم مقاليد العلوم: ١٠٨.

(٩) اليواقيت والدرر شرح نخبة الفكر ٢/ ٨٦، وعلوم الحديث ومصطلحه لصبحي الصالح : ١٩١.

(١٠) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢/ ١٣٣٦، وشذا العرف: ١٢٢، ومعجم المصطلحات النحوية والصرفية:١٩٠.

(١١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ٢/ ١٣٣٦

(١٢) البديع في نقد الشعر: ١٧٦.

(١٣) شروح التلخيص ١/ ٤٨٦، ومعجم المصطلحات البلاغية : ٣/ ١٤٠

(١٤) الكليات : ٧٠٤، دستور العلماء ٣/ ٦٥

(١٥) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة : ١١٨.

(١٦) الإتقان في علوم القرآن ٣/ ١٢٨.

(١٧) الخصائص ٢/ ٤٢٥.

(١٨) معاني القرآن للفراء ١/ ٩٢.

(١٩) معاني القرآن للفراء ١/ ٩٢.

(٢٠) تفسير الطبري ٣/ ٢٠٩.

(٢١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٢٢٧.

(٢٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ١٦٣.

(٢٣) البحر المحيط ٢/ ٤٥.

(٢٤) تفسير الطبري ٣/ ٢١٠.

(٢٥) معاني القرآن ١/ ٩٩

(٢٦) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه: ١٤٤.

(٢٧) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه: ١٦٩.

(٢٨) بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ١/ ٩٩، وأساس البلاغة ١/ ١٥٣، وتاج العروس ٤٧١/٣٧.

(٢٩) معاني القرآن ١/ ٩٩

(٣٠) اختلف العلماء في هذه الآية إلى أكثر من تسعة أقول، أهمها هذان القولان، ينظر للاستزادة: البحر المحيط ٢/ ١٠٦.

(٣١) تأويل مشكل القرآن : ١٢٧.

(٣٢) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٢٤٢.

(٣٣) الكشاف ١/ ٢١٤.

(٣٤) معاني القرآن للفراء ١/ ١٠٠.

(٣٥) تأويل مشكل القرآن: ١٢٩.

(٣٦) تأويل مشكل القرآن: ٥٥.

(٣٧) مجاز القرآن ١/ ٨.

(٣٨) مجاز القرآن ١/ ٦٣.

(٣٩) معاني القرآن ١/ ١٤٠.

(٤٠) تفسير الطبري ٣/ ٣١٢

(٤١) البسيط ٣/ ٤٩٢.

(٤٢) البسيط ٣/ ٤٩٣

(٤٣) ينظر للاستزادة: الإنصاف في المصطلحات المنفية من القرآن د عبد المحسن العسكر: ١٧.

(٤٤) معاني القرآن للفراء ١/ ١٣١.

(٤٥) المحرر الوجيز ١/ ٢٨٧.

(٤٦) المحرر الوجيز ١/ ٢٨٧.

(٤٧) البحر المحيط ٢/ ٣٧٠.

(٤٨) تفسير الطبري ٤/ ٢٨٦ – ٢٨٧.

(٤٩) بلا نسبة في معاني القرآن للفراء ١/ ٩٩، وأساس البلاغة ١/ ١٥٣، وتاج العروس ٤٧١/٣٧.

(٥٠) معاني القرآن ١/ ١٣٢.

(٥١) ينظر لهذه المسألة الدر المصون ١٠/ ٥٩٧.

(٥٢) معاني القرآن ١/ ٩٩.

(٥٣) المعاني ١/ ٩٩.

(٥٤) المعاني ١/ ٩٩.

(٥٥) المعاني ٣/ ٢٧٢.

(٥٦) التقديم والتأخير من ضروب القلب كما نصّ على ذلك السيوطي في الإتقان في علوم القرآن ١٢٨/٣.

(٥٧) معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٨.

(٥٨) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥.

(٥٩) معاني القرآن للفراء ١/ ٢١٩.
(٦٠) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥.
(٦١) تفسير الزمخشري ١/ ٣٦٦.
(٦٢) ينظر: روح المعاني للآلوسي ٢/ ١٧٢.
(٦٣) التحرير والتنوير ٣/ ٢٥٨.
(٦٤) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٧.
(٦٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١/ ٤٢٠.
(٦٦) معاني القرآن للفراء ١/ ٢٣٨.
(٦٧) الكشاف ١/ ٤٢٧.
(٦٨) البحر المحيط ٣/ ٣٧٩
(٦٩) العين ٦/ ٢٦٤.
(٧٠) الصحاح ٥/ ١٧٩٠.
(٧١) ينظر: تاريخ الطبري ٢/ ٥٠٠ – ٥١٢.
(٧٢) تفسير البغوي ٤/ ٥٦.
(٧٣) معاني القرآن ١/ ٤٤٠.
(٧٤) البيت له في تهذيب اللغة ٨/ ١٨٠.
(٧٥) تهذيب اللغة ٨/ ١٨٠
(٧٦) تفسير الماوردي ٢/ ٤٨٤، والبحر المحيط ٦/ ١٨١.
(٧٧) الكشاف ٢/ ٤١٠، والبحر المحيط ٦/ ١٨١.
(٧٨) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢.
(٧٩) معاني القرآن للفراء ٢/ ٢٢.
(٨٠) معاني القرآن وإعرابه ٣/ ٦٢،
(٨١) معاني القرآن للفراء ٢/٢٢.
(٨٢) آية ٥٣.
(٨٣) آية ١٠١.
(٨٤) آية ١٨.
(٨٥) التحرير والتنوير ١٢/ ١١٩.
(٨٦) تفسير الطبري ١٢/ ٤٧٥.
(٨٧) البحر المحيط ٦/ ١٨١.
(٨٨) معاني القرآن للفراء ٢/٢٢.
(٨٩) تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٦.

(٩٠) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٦.

(٩١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٦.

(٩٢) البحر المحيط ٦/ ٣٩٧.

(٩٣) تفسير الطبري ١٦/ ٤٧٦.

(٩٤) الكشاف ٢/ ٥٣٤.

(٩٥) ينظر: تفسير الماوردي ٣/ ١١٧.

(٩٦) مجاز القرآن ٢/ ١١٠.

(٩٧) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٤٧١.

(٩٨) الكامل ١/ ١٧٦.

(٩٩) تأويل مشكل القرآن : ١٣٠.

(١٠٠) تأويل مشكل القرآن : ١٢٦.

(١٠١) تفسير الطبري ١٨/ ٣١٢.

(١٠٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ١٥٥.

(١٠٣) الكشاف ٣/ ٤٣٤.

(١٠٤) الدر المصون للسمين الحلبي ٨/ ٦٩٤.

(١٠٥) معاني القرآن للأخفش ١/ ١٠٢.

(١٠٦) ديوانه بشرح الباهلي ٢/ ٦٢٤.

(١٠٧) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤/ ١٥٥.

(١٠٨) العين للخليل بن أحمد ٨/ ٣٩١.

(١٠٩) البحر المحيط ٧/ ١٢٧.

(١١٠) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٠.

(١١١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٣١٠.

(١١٢) ديوانه: ١٢٥.

(١١٣) ديوانه: ٤.

(١١٤) ديوانه: ١١٣.

(١١٥) تهذيب اللغة للأزهري ١٥/ ٣٨٨.

(١١٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٨٤.

(١١٧) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٤٩.

(١١٨) الكشاف ٤/ ٧٨٤.

(١١٩) ينظر: تفسير الماوردي ٦/ ٣١٨، والسمعاني ٦/ ٢٦٨، وابن الجوزي ٤/ ٤٧٨.

(١٢٠) سنن الترمذي ٤/ ٦١٩.

المراجع

١- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، الهيئة المصرية، محمد أبو الفضل إبراهيم.

٢- أساس البلاغة، لجار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ.

٣- الإنصاف في المصطلحات المنفية من القرآن، د عبد المحسن العسكر، دار التوحيد، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.

٤- الأنواء في مواسم العرب، لابن قتيبة الدينوري.

٥- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار الفكر، تحقيق: صدقي جميل، ١٤٢٠هـ.

٦- البديع في نقد الشعر، أسامة بن مرشد، الجمهورية العربية المتحدة، تحقيق: أحمد بدوي وحامد عبد المجيد.

٧- تاج العروس من جواهر القاموس، لمرتضى الزبيدي، مجموعة من المحققين.

٨- تاريخ الطبري، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

٩- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، دار الكتب العلمية، تحقيق إبراهيم شمس الدين.

١٠- التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م.

١١- التفسير البسيط، للواحدي، جامعة الإمام محمد بن سعود، مجموعة من المحققين، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

١٢- تفسير البغوي، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: عبد الرزاق مهدي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٣- تفسير السمعاني، دار الوطن، تحقيق: ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٤- تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٥- تفسير الماوردي، دار الكتب العلمية، تحقيق: السيد بن عبد المقصود.

١٦- تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري، دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد عوض مرعب، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

١٧- جمهرة اللغة، ابن دريد البصري، دار العلم للملايين، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١٨- الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جني، الهيئة المصرية.

١٩- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، دار القلم، تحقيق: د أحمد الخراط.

٢٠- دستور العلماء، للقاضي عبد النبي الأحمد نكري، دار الكتب العلمية، تعريب حسن فحص، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.
٢١- ديوان الحارث بن حلزة اليشكري، دار الكتاب العربي، تحقيق: إميل يعقوب، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٢٢- ديوان النابغة الجعدي، دار صادر، تحقيق: واضح الصمد، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
٢٣- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، الطبعة الثانية.
٢٤- ديوان النابغة الشيباني، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ.
٢٥- ديوان حسان بن ثابت، دار صادر، تحقيق: وليد عرفات، ٢٠٠٦م.
٢٦- ديوان ذي الرمة بشرح الباهلي، مؤسسة الإيمان، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م.
٢٧- روح المعاني للآلوسي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٢٨- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٩- سنن الترمذي، مصطفى البابي الحلبي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ.
٣٠- شذا العرف في فن الصرف، للشيخ أحمد الحملاوي، مكتبة الرشد، تحقيق: نصر الله عبد الرحمن.
٣١- شروح التلخيص، وهو شرح التفتازاني ومواهب الفتاح وعروس الأفراح، دار الكتب العلمية.
٣٢- الصحاح، للجوهري، دار العلم للملايين، تحقيق: عبد الغفور عطار، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.
٣٣- علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ١٩٨٤م.
٣٤- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، دار الهلال، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي.
٣٥- الكامل في اللغة والأدب، للمبرد، دار الفكر العربي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.
٣٦- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون، تحقيق: علي دحروج، الطبعة الأولى: ١٩٩٦م.
٣٧- الكشاف، لجار الله الزمخشري، دار الكتاب العربي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
٣٨- الكليات لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري.

٣٩- مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، مكتبة الخانجي، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، ١٣٨١هـ.

٤٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٤١- معاني القرآن للأخفش، مكتبة الخانجي، تحقيق: هدى قراعة، الطبعة الأولى: ١٤١١هـ.

٤٢- معاني القرآن للفراء، الدار المصرية للتأليف والترجمة، تحقيق: أحمد نجاتي ومحمد النجار وعبد الفتاح شلبي، الطبعة الأولى.

٤٣- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، عالم الكتب، تحقيق: عبد الجليل شلبي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٤- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، أحمد مطلوب، المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٣هـ.

٤٥- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، محمد سمير اللبدي، مؤسسة الفرقان، ١٤٠٥هـ.

٤٦- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، لجلال الدين السيوطي، مكتبة الآداب، تحقيق: د محمد عبادة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٤٧- مقاييس اللغة، لابن فارس، دار الفكر، تحقيق: عبد السلام هارون، ١٣٩٩هـ.

٤٨- اليواقيت والدرر شرح نخبة الفكر، للمناوي، مكتبة الرشد، تحقيق: المرتضى الزين، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.